دراسات الأدب المعاصر، السنة الثامنة، خريف ۱۳۹۵، العدد الواحد والثلاثون: صص ۹- ۳۵

استدعاء الشخصيات النبوية وتطوّرها الدلالی فی الشعر الفلسطينی المقاوم المعاصر

محمّدحسن أمرايی*

تاريخ الوصول: ۹۵/۳/۱۷
تاريخ القبول: ۹۵/۶/۱۸

الملخّص

إنّ ظاهرة استدعاء الشخصيّات التراثيّة من أهمّ الظواهر التی أثرت فی القصيدة المعاصرة علی نطاق واسع وعمّقت دلالاتها المتنوّعة أكثر من عمقها الظاهر. إنّ الرافد الدينیّ من أغنی الروافد السخية الخصبة فی حقل المصادر التراثيّة الّتی استمدّ منه الشاعر محمود درويش ليغترف من أغوار الماضی ويصل به حاضره معبّراً عن مشاعره البناءة المستشرفة للمستقبل المأمول الوصول إليه. هذا المقال بالاعتماد علی المنهج الوصفی والتحليلی يهدف إلی دراسة شخصيّات الأنبياء(ع) المختارة المستدعاة عند محمود درويش والتعبير عمّا تحمله هذه الشخصيّات الدينيّة من معان ودلالات رمزيّة.

الكلمات الدليلية: الشعر العربی المعاصر، التراث، آدم وحواء(ع)، أشعيا وإرميا، محمود درويش.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

* طالب الدكتورا، فرع اللغة العربية وآدابها، جامعة رازی، كرمانشاه، ايران. amrayy77@yahoo.com

المقدمة

التراث من أغنى المصادر التى تعود إليها الشاعر المعاصر؛ ليغترف من مناهلها ويتـزوّد بذخائرها؛ لأنّه يعرف قيمته الفنيّة ودوره فى ارتقـاء الأثـر وإعطائـه الحيويّـة والإصـالة. إنّ عودة الشاعر المعاصر إلى التراث عودة فنيّة، لا تقوم علـى أسـاس المتابعـة، هـو يسـتلهم التراث فى مكتسباته الأدبية، ليعبر بها عن خوالجه الوجدانية وعن تجاربه الشّعريّة. التـراث غنىّ بالمضامين والدلالات والرموز المختلفة الّتى تساعد الشّاعر للتعبيـر عمّـا يخـتلج فـى نفسه بشكل يُثير ذهن المتلّقى للبحث عـن الفحـوى، وأيضـاً يحفـظ الشـاعر مـن القهـر السياسىّ والاجتماعىّ الحاكم على المجتمع(نظرى ووليئى، استدعاء شخصيّات الشعراء فى شعر محمود درويش: ٢٣).

لقد احتلت الرموز والحكايات والأساطير بكلّ مستلزماتها حيّزاً واسعاً فى الأدب العربـى الحديث باعتبارهما «جزءً من التراث الإنسانى عامة والتراث العربى خاصـة وهمـا يوظفـان فى الأدب لإضاءة التجربة الفنيّة وإضفاء التجربة بعداً جديداً، ليخرج الأدب من مضغ الصور المبتذلة والحسيّة وليبتعد الشاعر عن الإغراق فى الذاتيّة المحضة ويكتسب العمل الأدبـى نوعاً من الموضوعية والعمق الفنىّ»(أصلانى والآخرون، الرمز والأسـطورة والصـورة الرمزيـة فى ديوان أبى ماضى: ٢).

إنّ *محمود درويـش* مـن الشـعراء المعاصـرين الـذين عنـوا بتوظيـف التـراث بأنواعهـا المختلفة من الرموز والأساطير والقصص القرآنية والتوراتيّة و ... فى شعره. وله صـلة وثيقـة بالتراث، حيث تكرّر ورود الشخصيّات والأسماء منها: *جلجامش* و*عوليس* و*عنات* و*المتنبـى* و*صلاح الدين* وأسماء الأنبياء والرسل(ع) ...إلخ، فى شعره؛ لمـا فيهـا مـن مشـابهة الصـورة للواقع السياسىّ الفلسطينىّ والعربىّ التى عزّ ظهورها فيـه وأصـبح اسـتدعاؤها أمـراً ملحّـاً يفتقد إلى أمثالها فى واقعنا المعاصر وتشكل معادلاً موضوعياً لما يشعر به. مـن الملاحـظ أنّ التراث جزء لا يتجزأ من الأدب الفلسطينىّ المعاصـر، سـيّما *محمـود درويـش*، حتّـى تحوّل استخدامه إلى سمة من سماته الأسلوبية، بحيث من يلـق نظـرة عـابرة إلـى شـعره يجده مليئاً بالقصص القرآنية والأساطير والنصوص الأدبيّة واستحضار الشخصيّات؛ وهو من بين الشخصيّات المستدعاة فى شـعره، اسـتلهم مـن الشخصـيّات اليهمسـلامية(اليهوديّـة والمسيحيّة والإسلاميّة على التوالى) استخداماً أكثر دون الآخرين. أخذ الشاعر هذا التـراث

من مصادره المتنوعة وبطرق تعبيرية مختلفة. ومن هذا المنطلق، ارتقت القصيدة العربية الحديثة إلى مستويات إبداعية مبتكرة متطوّرة تتوازى مع أعظم الأشعار العالمية فی القرن العشرين. هذه الدراسة تسعى إلى تسليط الضوء على أهمّ الشخصيات المستلهمة وتطوّرها الدلالی فی شعر *محمود درويش* ومكانته الهامّة فی خريطة الشعر العربی.

سابقية البحث

هناک العديد من الدراسات والإصدارات العربية والفارسية التی تناولت *محمود درويش* والكثير منها يتعلّق بموضوع التناص والتراث والرموز فی شعره، منها: ١. «الرموز التأريخيّة والدينيّة والأسطوريّة فی شعر محمود درويش» (٢٠١٠م) مقال للكاتب *محمد فؤاد السلطان*، خصصت لدراسة الرموز الأسطورية وأهميتها وأسطورة الرمز وأشكال توظيف الرمز الأسطوریّ. ٢. «الرمزية الميثولوجيّة فی شعر محمود درويش والصراع على ذاكرة المكان» (لاتأ) مقال للباحث اللبنانی *ظافر مقدادی*، كتب الباحث عن رمزية الميثولوجيا فی شعر *محمود درويش* بمناسبة مرور عام على رحيله. ٣. «التناص الدينی والتأريخی فی شعر محمود درويش»(١٤٢٨ق- ٢٠٠٧م)، أطروحة قدّمتها الطالبة *ابتسام موسى عبدالكريم أبو شرار* لنيل درجة الماجستير فی قسم اللغة العربية فی عمادة الدراسات العليا فی جامعة الخليل وقد ناقشت الباحثة فی محتوياتها التناص الدينیّ عبر شخوص القصة الدينيّة، كما درس كذلک التناص التأريخیّ والتشكيل الجماليّ فی إطار التناص الدينیّ والتأريخیّ فی شعر *محمود درويش*. ٤. «التوراتيات فی شعر محمود درويش» للباحث *أحمد أشقر*(٢٠٠٥م). ٥. «التراث الغزلی فی شعر محمود درويش وقيصر امين بور» *لمحمّدرضا عزيزی*(١٣٩١ش). ٦. «ظاهرة التناص فی لغة محمود درويش الشعريّة» للباحثة الإيرانيّة *مرضية زارع زردينی*(١٣٨٨ش). وغيرها من الدراسات المتناثرة فی ثنايا الكتب والمجلات المنشورة فی المواقع الإلكترونية التی ربّما جاءت بأشياء مهمّة عن استدعاء الشخصيّات وتطوراتها الدلاليّة، فاتتها أشياء أخرى لا تقلّ أهميّة عنها، ورغم ذلک لم نعثر على دراسة شاملة وافية مركزة لموضوع المقال: استدعاء شخصيّات الأنبياء والرسل(ع) وتطوّرها الدلّاليّ فی الشّعر الفلسطينیّ المقاوم*(محمود درويش* نموذجاً)، اللهمّ إلاّ هناک بعض الدراسات السابقة التی ساعدتنا وأسهمت فی إختيارنا لهذا الموضوع هی:

«استدعاء الشخصيّات التراثيّة فی الشعر العربیّ المعاصر» للباحث *علی عشری زاید* و«أشكال التناص الشعری(دراسة فی توظيف الشخصيّات التراثيّة)» للباحث *أحمد مجاهد* و«استدعاء شخصيّات الشعراء فی شعر محمود درويش» مقال *للدكتور علی نظری* و*يونس وليئی*. هذه الدراسات وأخری أسهمت فی تحديد مسار وإثرائه فكانت خير عون لنا. لا يفوتنا أنّ هذا المقال يختلف عن هذه الدراسات كلّها والدراسات الأخری المرتبطة فی هذا المجال؛ لأنّه يختصّ بتناول استحضار شخصيّات الأنبياء والرسل(ع) فی شعر *محمود درويش* فقط لا غيرُ.

ضرورة وأهمية البحث

بما أنّ الشعراء الفلسطينيين أولو اهتماماً كبيراً بالمعطيات الدينيّة الّتی تتعرض لليهود وجرائمهم واستغلوا من الموروث الدينی المواقف الثوريّة، الّتی وقفت فی وجه الظلم والقهر وقد كانت شخصيّات الأنبياء والرسل(ع) من أكثر الشخصيّات الدينيّة حضوراً لثرائها الدلّاليّ وطاقاتها الإيحائيّة الهائلة وقدرتها علی حمل أبعاد التجارب الشعرية المعاصرة وقربها من معاناة وهموم الشّاعر المعاصر تجاه وطنه، نحن رصّدنا مظاهر هذا الاستلهام فی شعر *محمود درويش* بالدراسة والتنقيب.

هدف البحث

يهدف هذا المقال إلی دراسة نماذج ومقتطفات شعرية من *محمود درويش* فی ضوء الرموزية، ذلک لتظهر مدی فاعلية الصور الرمزية والشخصيّات الإيحائية التراثية فی إثارة المخاطب ومدی تأثيرها فی إلقاء وتوصيل الرسالة الأدب النضالی إلی المتلقی.

أسئلة البحث

١. ما هی أهمّ الرموز الشخصيّة التراثيّة التی استمدّها الشاعر *محمود درويش* من موروثه الشعری؟

٢. كيف عبّر *محمود درويش* عن تجربته الشّعريّة من خلال هذه الشخصيّات الدينيّة المستدعاة فی شعره؟

فرضيات البحث

۱. إنّ محمود *درويش* كغيره من الشعراء الملتزمين بقضية القدس وفلسطين تناول الشخصيّات الرمزيّة المختلفة من اليهوديّة والمسيحيّة والإسلاميّة وغيرها فی شعره واستحضرها لتجسيد صورة من صور المقاومة، دفاعاً عن كينونته وهويته القوميّة والوطنيّة ومقاومة ضد العدوّ الصهيونیّ الّذی جرّد الفلسطينی من أرضه.

۲. يتّضح أنّ الفرضية الرئيسيّة التی يحاول هذا المقال إثباتها، فهی أنّ الشخصيّات المستدعاة فی شعر *درويش* لا تحمل دلالة ثابتة تعدّ مرادفاً لها فی الوعی الجمعی فحسب، بل أخذ الشاعر الرموز الشخصيّة، ثمّ قادها وساقها إلی المنظورات المعاصرة الراهنة.

منهجية البحث

إنّ هذا المقال أختار المنهج التوصيفی والتحليلی، فی سبيل إنجاز دراسته وبعد تطرّق موجز إلی بعض المقدمات المستلزمة فيه وفقاً للكتابة الجديدة، استقصی إلی تحليل ودراسة مقتطفات شعر محمود *درويش* بغية إزاحة الستار عن مدی تعالق الرمز والأدب المقاوم. وهو أنجز مهمته بدراسة الشخصيات الرمزية المعهودة من التوراتية والمسيحية واليهودية والإسلامية والكنعانية أولاً ثمّ ركز علی دراسة وتبيين إيحائاتها الخاصة وتطوراتها الدلالية المختلفة.

أهمية استدعاء الشخصيات التراثية فی الشعر المعاصر

للتراث أهمية بالغة فی تشكيل شخصية الشاعر المعاصر وتطوير أفكاره. لقد جاء فی كلام *علی عشری زايد* ما يدلّ علی توظيف التراث فی العصر الحاضر، حيث يقول: «لقد كان التراث فی كلّ العصور بالنسبة للشاعر المعاصر هو الينبوع المتفجّر بأصل القيم وأنصعها وأبقاها والأرض الصلبة التی يقف عليها يبنی فوقها حاضره الشعری الجديد»(عشری زايد، توظيف التراث العربی فی شعرنا المعاصر: ۷).

تكمن أهميّة التراث هنا فی كونه مصدراً دائماً لا ينضب، بكلّ القيم الفكريّة والروحيّة الراسخة التی يعود إليها الشاعر المعاصر ليبنی تجربته الشعرية.

يذهب محمّد *فؤاد السلطان* لهذا القول بأنّ: «استدعاء الشخصيات التراثية فى الحقيقة محاولة لقراءة واقعنا المعاصر لنعرف من خلال هذه المقارنة بين الماضى والحاضر، مقدار الخلل الذى أصاب الأمّة فى حاضرها وتقديم حلول لهذه المشاكل من خلال استلهام التراث»(السلطان، الرموز التأريخية والدينيّة والأسطورية فى شعر محمود درويش: ٣). إنّ عودة الشّاعر المعاصر إلى هذا التراث الإنسانىّ لاستنباط ما فيه من قيم روحيّة وإنسانيّة راسخة فى وعى هذا الشاعر تمثّل دعامة تجربته الشعريّة والأدبيّة والربط بين زمنين ماض وحاضر لتحقيق المستقبل.

للتراث أهميّة بالغ فى الحياة العامة للإنسان وللشاعر المعاصر بصفة خاصة؛ إذ يمثّل له جذوره الممتدة فى أعماق الماضى بكلّ ما فيه من بطولات وهزائم، يتّخذها رمزاً للإشادة والافتخار بماضيه كما تشكل صورة مبطنة للحظة الراهنة، فهو إذا جسر ممتدّ يربط بين ثلاثة أزمنة ماض، حاضر، مستقبل، وذلک من خلال دمج الماضى بالحاضر أو استلهام ما يناسب التجربة الشعريّة الخاصة بالشاعر وفقاً لبيئته وظروفه وربطها باللحظة الراهنة للتعبير عن المستقبل تفاؤلاً به أو تشاؤماً منه.

نظراً لأهميّة هذا التراث يتّخذ الشاعر المعاصر جملة من المراحل والخطوات فى توظيفه، وفى استدعائه لشخصيّاته بشكل خاص ويتخلل هذه المراحل استخدامه لآليات وأنماط متعددة تبرز قدرته فى استحضاره والتوغّل فى أغواره»(سعيدة دباخ، استدعاء الشخصيّات التراثيّة فى شعر حسين زيدان: ١١).

استدعاء الشخصيّات هو أحد عناصر التراث ومعطى من معطياته وتقنية استدعاء الشخصيّات التراثيّة تعدّ إحدى الوسائل التعبيريّة التى يلجأ إليها الشاعر المعاصر؛ لتحديث بنية القصيدة العربية قصد الوصول إلى تشكيل رؤاه للعالم وللكون والتعبير عمّا يحسّ به من معاناة أمته العربية وأزمتها، الأمر الذى يدلّ على مآذق الإنسان العربى فى عالمنا المعاصر(نظرى ووليئى، استدعاء شخصيّات الشعراء فى شعر محمود درويش: ٢٣؛ منقولاً عن عبدالرحيم حمدان: ٣). استدعاء الشخصيّات بالنسبة للشاعر ليس مجرد ذكر للشخصيّة أو الأخبار عنها فحسب، بل المعرفة الواعية بملامح تلک الشخصيّات وأبعادها الدلالية ومن ثمّ المقابلة بين تلک الملامح والقضايا، التى يعيشها الشّاعر فى واقعه، ثمّ التعبير عن هذا الواقع من خلال الشخصيّة المستدعاة بطرق تعبيرية مختلفة تبتعد كثيراً

عن مجرد ذكر الشخصيّة، أو سرد أحداثها، كما وردت فی كتب التـأريخ والتـراث(المصـدر نفسه: ۲۷). هذا المقال يرصد شخصيّات الرسل والأنبياء(ع) المختارة المستدعاة وتطوّراتها الدلاليّة فی شعر *محمود درويش*.

الشخصيات المستدعاة فی شعر محمود درويش

النبی محمّد(ص)= الصمود والإصرار والثورة علی الظلم

يستدعی الشاعر الشخصيات التراثيّة الدينية أمثال: *آدم* و*قابيل* و*هابيل* و*نوح* و*أيوب* و*يوسف* و*هاجر* و*خديجة(ع)* و*النبیّ محمّد(ص)*، حيث يستدعی شخصيّة *النبی أيوب(ع)* عندما يشعر بالضياع والألم الشـديد، فيقـول: «*أيـوب* مـاتَ»(درويـش، الـديوان، ج۲: ۱۷) متوخّياً أن صبر الفلسطينيين انتهی.

وأمّا *النبی محمد(ص)* فيقول عنه عندما يشير إلـی ماضـی فلسـطين وتقـدّس أرضـها ومعراج النبیّ فيها:

وهذا صعود الفتی العربی إلی الحلم والقدس...
سيّدتی الارض
فی شهر أذار تستيقظ الخيل ...

(المصدر نفسه، ج۱: ۶۴۴)

وأيضاً يستدعيه فی قصيدته «نشيد» ليشكو إلی *محمّد(ص)* من سجنه وتشرّده ونفيه، فيرشده *النبی محمّد(ص)*:

تحدّ السجن والسجان
فإن حلاوة الإيمان
تذيب مرارة الحنظل

(المصدر نفسه، ج۱: ۱۵۱)

اسـتلهم *درويـش* بعـض رمـوزه مـن «التـراث الـدينیّ الإسـلامیّ ومـا يتعلّـق بحيـاة *محمّد(ص)*، حيث استخدم رمزاً شاملاً للإنسان العربیّ سواء فی انتصاره أو عذابـه»(طاقـة، ديوان الأعور الدجال والغرباء: ۴۱). إنّ الشاعر زوّد نصوصه الشـعرية بأشـكال مختلفـة مـن ألفاظ القرآن ومعانيه وقصصه التی يعجّ بها الشعر العربی المعاصر. من هـذا المنطلـق، إنّـه

وظّف شخصيّة *النبی محمّد(ص)* - التی انفرد بها القرآن الکریم- ضمن إشارات رمزیة، من خلال توظیف اسم الشهید الطفل *محمّد الدرّة* تارة وتوظیف النص القرآنی تارة أخری، کما نلاحظ فی نهایة النص(فاصْعَدْ الی سِدرة المُنْتَهی)؛ لیجسّد رمزاً لإصرار الیسوع فی الوصول إلی الهدف الوطنی والسیاسی وهو الصمود والإصرار والثورة علی الظلم، سیّما أنّ الظالم هو نفسه وهم الیهود. حیث الشاعر الفلسطینی الکبیر *محمود درویش* قد رثی الطفل *محمد الدرة* فی ذکراه فی قصیدة طویلة معنونة بِـ«محمّد» ومنها:

مُحمّدْ
یُعَشّشُ فی حِضنِ والدهِ طائراً خائفاً
مِنْ جحیمِ السماءِ: احمنی یا ربّی
مِنْ الطَیرانِ إلی فوق إنّ جناحی
صغیرٌ علی الریحِ ... والضوءُ أسْوَدْ ...
مُحمّدْ،
یریدُ الرجوعَ إلی البیتِ، مِنْ دون دَرّاجة... أو قمیصٍ جدیدْ ...
یَسُوع صغیر ینامُ ویحلمُ فی
قَلْبِ أیقونةٍ
صُنِعتْ من نحاسْ
ومن غُصْن زیتونة
ومن روح شعب تجدّدْ
مُحمّدْ، دَمٌ زادَ عن حاجةِ الأنبیاءِ
إلی ما یُریدون، فاصْعَدْ
الی سِدرة المُنْتَهی
یا مُحمّدْ!»

(درویش، الدیوان، ج١: ٥٨٤)

یوظّف محمود *درویش* ببراعة کاملة التراث الإسلامیّ فی حادثة «الإفک» لیصوّر مدی المعاناة التی یلقاها الإنسان الفلسطینیّ والمتمثّلة فی البحر والموج والغرق الذی یرمز به للرحیل من ناحیة وللعدوّ الصهیونیّ ومن یقفون وراءه من ناحیة أخری، یقول:

ألفُ شُبّاک علی البحرِ الذی قد أغرَقَ الإغريقَ
کی يُغرقنا الرومانُ
بيضاءُ هی الجدرانُ
زرقاءُ هی الموجةُ
سوداءُ هی البهجةُ
والفکرةُ مرآةُ الدماء الطائشهْ
فلتُحَاکَمْ عائشهْ
ولتُبَرّأ عائشهْ
آه، لا شیء يثير الروح فی هذا المکانِ

(المصدر نفسه، ج٢: ١٥۴)

تتداخل شخصيّة *النبی محمّد(ص)* مع تجربة محمود درويش؛ لکنّه لم يبلغ من العمق والکثافة والبروز ما بلغته شخصيّات أخری کشخصيّة *يوسف* و*المسيح* عليهما السّلام مـثلاً، وقد يعود ذلک إلی مدی الانسجام بين الشخصيّة وبين الحالة النفسيّة التی يعيشها الشاعر ويکون ذلک نابعاً من إحساسه تجاه ذاته أو تجاه الواقع؛ إذ يقـول مسـتدعياً العلـم محمـد رمزاً فی قصيدة «مع محمد»:

ألو
أريد محمد العرب
نعم! من انت؟
سجين فی بلادی
بلا أرض
بلا علم
بلا بيت
رموا أهلی الی المنفی
وجاؤوا يشترون النار من صوتی
لأخرج من ظلام السجن
ما افعل؟ ويجيبه الرسول العربی: تحدّ السجن والسجان

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

فان حلاوة الإيمان
تذيب مرارة الحنظل

(المصدر نفسه، ج١: ١٥١)

واضح هنا، إنّه يستحضر *النبى محمّداً(ص)* كى يحثّه على مقاومة قامعيه. والمفارقة أنّه ليس هو الذى يقرّر بنفسه الثورة ومقاومة قامعيه وإنما يستدعى *محمّداً(ص)* كى يحثّه على المقاومة.

يستعين الشاعر بحكمة *النبى محمّد(ص)* بوصفه حاملاً لرسالة سماويّة تحمل فى سبيلها عقبات الدّهر ولم ينثنِ أمام العراقيل التى تعترض سبيله ومن هنا تكون هذه الشخصيّة جديرة بأن تُستَلهَم الحكمة وتُستمدّ العبرة من سفرها الخالد، فليس لنبىّ آمن برسالته وأصرّ على نشرها متخطّياً كلّ السبل إلاّ أن يحثّ الفلسطينىّ على التحدّى حاملاً رسالته الوطنية، مؤمناً بحتمية توصيلها، فمن هنا ينتهى الموقف بالأخذ بحكمة *النبى محمّد(ص)* التى يصوغها الشاعر: «تحدّ السجن والسجان فإن حلاوة الإيمان تذيب مرارة الحنظل» ومن هنا يكون الرمز "محمّد العرب" قادراً على حمل ذاكرة المتلقى إلى الماضى الزاخر بالعبر فى إطار الزمن الحالى؛ إذ أن الرمز فى رأى *أدونيس* «ما يتيح لنا أن نتأمل شيئاً آخر وراء النّصّ، فهو بعد خفى وإيحاء»(أدونيس، زمن الشّعر: ١٦٠)

هذا هو محمود الذى ينحاز فى كلّ ما صدر عنه إلى فقراء الوطن، والذى تبصّر منذ تفتحه بالرؤية الثوريّة وتسلّح بالفكر الاشتراكى التقدّمى، ومتح من الموروث الفلسطينىّ والعربىّ والعالمىّ المنفتح، فولج عالم الشعر واثقاً صادقاً مخلصاً مؤمناً بعدالة قضيته، يعانى ويتحدى ويسجن من أجلها. إنه شاعر مأساة. فلسطين همّه وهاجسه يوظف لأجلها كل طاقاته الشعرية وكل طاقته الفنية بصور رائعة و"مبنى استعارى" جميل متجدد وموسيقى عذبة دافقة ومفردات أنيقة متناغمة منسجمة فيصير العادى بين يديه دهشة يلتحم الأنا بالقضية، وتندغم الذات بالوطن، ويمتزج الخاص بالعام، ويتوحد العدل بالحرية، ولا نهاية للنضال الفلسطينى لأنه عادل حتى التحرّر فها هو يقول فى قصيدته المعنونة بِـ«تحدّ»:

مليون عصفور
على أغصان قلبى
يخلق اللحن المقاتل

يوظّف الشاعر «رمز الشخصيّة فی القصيدة الحديثة ويسقط الأبعاد المعاصرة للرؤية الشعريّة على ملامح تلک الشخصيّة؛ إذ توحی هذه الملامح إيحاء رمزيّاً بالرؤية المعاصرة.» (عشری زايد، توظيف التراث العربی فی شعرنا المعاصر: ٢٠٧). فالشخصيّات الرمزيّة تتميّز باكتسابها السمّة الإيحائيّة القادرة على إغناء الفكرة وإكسابها شكلاً مغايراً لصورتها الأوليّة ويحاول إدراكها بخياله إلى جانب عقله. يقول الشاعر مستخدماً الرمز "أحمد العربی" وسيلة إيحاء:

الآن أكمل فيک أغنيتی
وأذهب فی حصارکْ
والآن أكمل فيک أسئلتی
وأولد من غبارک ...
أكلّما نَهَدَتْ سفرجلةٌ نسيتُ حدود قلبی
والتجأتُ إلى حصارٍ كی أحدِّد قامتی
يا أحمد العربیّ؟ لم يكذب علیّ الحب ....

(درويش، الديوان، ج١: ٦١٦)

فالشاعر اقتنص من الماضی ما يتناسب مع إشكالات الحاضر، فيعيش النصّ المقتنص داخله وتحلّ ظروفه فی نفسه وتلتحم بإحساساته والشاعر هنا يقتنص جزئياً الآية نفسها المتّصلة بِـ"حجّة الوداع". ويستدعی العلم "أحمد العربیّ" والرسالة التی يحملها هی الأغنية والأسئلة وهی تعادل المشوار النضالی المبذول فی سبيل الوطن و"أحمد العربیّ" يمثّل الفلسطينیّ حاملاً رسالته ومنتصراً على الصمت ولعلّ حرف النداء المقترن بذلک الرمز يمدّه بمكانة متميّزة ويوليه مهمّة ما تفصح عن تلک المكانة.

آدم وحوّاء(ع)= الفلسطينی والفلسطينية

صوّر الشعراء الفلسطينيون عمق الصراع الإنسانیّ من خلال شخصيّتی *آدم* و*حوّاء* وقفوا أثناء ذلک أمام معاناة وجودية وتجربة إنسانيّة مؤثرة، ورصّدوا تلک المعاناة عبر الزمن؛ و*درويش* واحد من أهمّ الشعراء الفلسطينيين الذی استأنس بهاتين الشخصيتين؛ لما لمسه من قواسم نفسيّة مشتركة تصطدم بوجدانه وتقارب أفكاره؛ ممّا أكسب النّصّ

المبتدع ملامح خاصّة، تجمع ما بين النصين المتماسّين وتتصل بالذاتيّ والاجتماعيّ والإنسانى فى آن وتقارب بين الشخصيّات الإنسانيّة عبر أزمنة متباعدة؛ وذلک بإيجاد صفات مشتركة بينهما تثيرها بعض المعالم والظروف المتصلة *بآدم* و*حواء* ومن تلک المعالم حقيقة الخلق؛ إذ استلهم *درويش* هذه الفكرة ليعبر عن الوجود الفلسطينيّ وقوّة التلاحم بالأرض التى جبل منها وكانت له مكان وجود؛ إذ يقول:

هنا، "لا أنا"
يتذكّرُ آدَمُ صَلْصَالَهُ
سيمتدّ هذا الحصارُ إلى أن نعلّم أعداءنا
نماذجَ من شِعْرنا الجاهلى

(درويش، حالة الحصار: ١١)

ههنا معركة للبقاء والبقاء أى يكون لک هوية لتدلّ عليک وعندما تحصل على ما يدلّ عليک، سيكون من المريع فقدانه؛ لأنّ ذلک يعنى الضياء واللاوجود(شاهين، التّلقّى والنصّ الشّعريّ: ١٩). فالتعبير عن الوجود فى الشعر يجد متّسعة عبر الرموز والطين فى السياق السابق رمز لوجود الفلسطينيّ وهويّة بقائه، فإن كان يعنى بالنسبة *لآدم(ع)* حقيقة الخلق، فلعلّه يعنى بالنسبة للشاعر الوجود والانتماء تحت لهيب الاحتلال وتحت وطأة الحصار النفسى والمادى على الأرض، فالشاعر يعكس لحظة تأريخيّة حرجة من حياة الفلسطينيّ داخل وطنه. ههنا فى المقطوعة السابقة يجسّد الشاعر لحظات الحصار الطّاغى فى "رام الله" واسم الإشارة «هنا» يستعرض لحظة سكون الماضى فى النّفس واستعادة ذلک الماضى فى لحظات الإحساس بالوجود فى غمرة الضياع على أرض الوجود، منشأ الشّاعر. إنّها لحظة تجسيد للكينونة الملهمة للقوّة، ويأتى ذلک بالتناص مع الآية القرآنية ترتبط بقصة *آدم(ع)* وهى يتّضح فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾(الحجر: ٢٨)

وهل يرمز *آدم(ع)* إلى غير الفلسطينيّ المترنّح للحرية على بقعة وجوده وتكوينه؟

فى مجال آخر، نلاحظ محمود *درويش* يتناص شعره مع الجانب المتّصل بقوله تعالى الذى يعدّ جزءاً من قصة *آدم(ع)*:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة/ ٣١)

فقد استمدّ الشاعر فكرة النصّ القرآنیّ ولغته ذات الصلة بالقصة الدينيّة، حيث يقول:

نحن الثنائيُّ السماء- الأرضُ، والأرض- السماءُ
وحول سورٌ وسورٌ
ماذا وراء السور؟
علم آدَم الأسماءَ كی يتَفتح السر الكبيرُ
والسرٌ رحلتنا إلى السریّ
إن الناسَ طيرٌ لا تطيرُ

(درويش، الديوان، ج٢: ۴۵۴)

«تشير التسمّية هنا إلى بدئية المعرفة أولاً وإلى تجذير الهوية وإثبات الوجود ثانياً، فالشاعر يحاول تسمية الأشياء من جديد؛ ليمنحها رؤيته الفكرية»(غنايم، مرايا فی النقد، دراسات فی الأدب الفلسطينی: ١٢٣) ويكشف *محمود درويش* عن هذه التسمية من خلال تعليم الأسماءَ، فـ"آدم" هو الفلسطينیّ فی طريقه نحو آماله وأهدافه.

فی مجال آخر، يستدعی الشاعر شخصية *آدم* استدعاءاً مباشراً ويتناص معها بصورة مخالفة؛ إذ يری أنّ قضية *آدم(ع)* وخروجه من الجنّة تختلف عن قضيته وخروجه القسری من بيروت، حيث يقول:

لستَ آدمَ كی أقول خرجتَ من بيروت
منتصراً على الدنيا ومنهزماً أمام الله

(درويش، الديوان، ج٢: ٧٣)

إنّ *محمود درويش* يذكر خروج *آدم(ع)* من الجنّة صورة مشابهة لخروج الفلسطينیّ من "بيروت"، حيث يرفض الشاعر نظريّاً مبدأ الخروج ويعتقد أنّ هزيمة *آدم(ع)* أمام الله تعالى تكون منطقيّة طبيعيّة من ناحية ومتوقّعة من ناحية أخرى، أمّا خروج الفلسطينیّ من بيروت فليس له ما يبرره سوى الإجحاف والهيمنة الإستعمارية، من هنا يرفض الشاعر الهزيمة أمام عدوّه ويمقت ذلک العدوّ كلّ المقت. استحضر *درويش* فكرة خروج *آدم(ع)* من الجنّة بصياغة جديدة، فی قصيدته المعنونة بِـ"تعاليم حوريّة" التی أخذت منها

المقطوعة جزءً من سيرته داخل الوطن ويشير إلى الخروج منه غير مـرّة، حيـث يتضـاعف فيها فعل الطرد:

لا وَقْتَ حَوْلَکِ للكلام العاطِفيّ
عَجَنْتِ بالحَبَقِ الظهيرةَ كُلّها
وَخَبَزْت للسُمّاقِ
عُرْفَ الدِيک أعْرِفُ ما يُخَرِّبُ قلبَکِ المَثْقُوبَ
بالطاووس، مُنْذُ طُرِدْتِ ثانيةً من الفردوس

(درويش، لماذا تركت الحصان وحيداً: ۷۹)

شبه الشاعر العدوّ الصهيونى بالطاووس فى مجال ظلمه واضطهاده فـى فلسـطين كمـا شبه أرض الفلسطين بالفردوس المفقود *لآدم(ع)* الذى أخرجها مـن يـده. وأيـاً كـان مـن المعنى المختبئة وراء النص، فحضور القصة الدينيّة المتّصلة بشخصـيّتى *آدم* و*حـواء* يـأتى مستلهماً من القرآن الكريم والتوراة، نظراً للتشابه بين الأفكار الواردة فى هذين المصدرين، وإن كان بعض ملامح الآيات القرآنية أكثر تجلّياً.

إسماعيل(ع)= وضعية الفلسطينى مغترباً ومتضحياً ومتجذراً فى تأريخه

إنّ «شخصيّة *إسماعيل* يعتبر واحداً من السلالات التى انحـدر منـا العـرب»(الملـوحى وآخرون، نشأة العالم والبشـرية دراسـة معاصـرة فـى سـفر التكـوين: ۷۶). فلـذلک يكـون استحضارها موضوعا للتناص معبّراً عن تأريخية الفلسطينى وأصل وجوده، كمـا يعبّـر عـن مشاعر الاغتراب والوضعية النفسية التى يعيشها الفلسـطينىّ مشـابهاً *لإسـماعيل(ع)*. فقـد استلهم *درويش* تلک الشخصية بوضوح فى قصيدته «عود إسماعيل» الواردة تحـت عنـوان "فضاء هابيل" وقد تكرّر فى متن تلک القصيدة استدعاء العلم *إسماعيل* سبع مـرّات وفـى تلک القصيدة «يكون الغناء بمصـاحبة أوتـار عـود *إسـماعيل* اسـتعارة لاسـم جـدّ العـرب *إسماعيل بن إبراهيم* وإعادة تمثيليّة للتكوين الأول»(حاتم الصّكر، مرايا نرسـيس الأنمـاط النوعيّة والتّشكيلات البنائيّة لقصيدة السّرد الحديثة: ۱۶۹)؛ حيث يقول الشاعر:

مسافةً تكفى لتنفجرَ القصيدةُ
كان إسماعيلُ

يهبط بيننا، ليلاً ويُنشدُ: يا غريبُ
أنا الغريبُ وأنت منّي يا غريبُ! فترحَلُ
الصحراءُ فی الكلمات والكلماتُ تُهْمِلُ قُوّةَ
الأشياءِ عُدْ يا عُودُ ...
بالمفقودِ، واذبحْنی
عَلَيْهِ، من البعيد إلى البعيد ...
فی عُودِ إسماعيلَ يرتفعُ الزَفَافُ السُومَرِيّ
إلى أقاصی السَيْفِ لا عَدَمٌ هناک
ولا وجودٌ مسّنا شبق إلى التكوين: ...

(درويش، لماذا تركت الحصان وحيداً: ۴۸)

إن الشاعر إذ يعانی حالة حزن شاملة تمتدّ من الماضیّ إلى الحاضر يحاول إعادة التكوين عبر عود *إسماعيل*؛ إذ يرسم تفاصيل المشهد بجعله "إسماعيل" يحمل عوده منشداً فی قصيدته(المصدر نفسه: ۵۴): «يا غريب، أنا الغريب، وأنت منّی يا غريب» ومن هنا يكون استحضار شخصيّة *إسماعيل(ع)* تعبيراً عن الغربة، فالفلسطينيّون والإسماعيل يعيشون الاغتراب فی ضوء ملفوظات الشاعر السابقة و فی ضوء الواقع التأريخی لكلّ منهما، فمخاطبة الغريب بالنداء إشارة إلى الفلسطينیّ والضمير "أنا" يشير إلى "إسماعيل" رامزاً للفلسطينیّ. ههنا *درويش* أراد أن يقول كلنا غرباء على الأرض، منذ طرد *آدم(ع)*. وهو غريب على هذه الأرض التی يحيا عليها مؤقتاً إلى أن يستطيع العودة إلى جنته الأولى.

فی مجال آخر فی محطات من قصيدة «فضاءُ هابيل - عُودُ إسماعيل» يستدعی محمود *درويش*، شخصيّة *إسماعيل* فی هيأة مغنٍ يعزف عوده ويعيد تشكيل الحياة بغنائه ويجری الوجود على الأرض ويمكنه وسط اللا ممكن، حيث يقول:

كُلّ شیء سوف يبدأ من جديدِ
يتحرّكُ المعنى بنا ...
فنطيرُ من سَفْحٍ إلى
سَفحٍ رُخَامیّ ونركُضُ بين هاوِيَتَيْنِ زَرْقاوينِ

لا أحلامُنا تصحو ولا حَرَسُ المكانِ
يغادرون فضاءَ إسماعيلَ لا أرضٌ هناكَ
ولا سماءٌ مَسّنا طربٌ جَمَاعيٌ أمامَ
البَرْزَخِ المصنوعِ مِنْ وتَرَيْن إسماعيلُ... غَنّ
لنا ليصبح كُلُّ شيءٍ مُمْكِناً قُرْبَ الوجودِ...

(المصدر نفسه: ۴۷)

ههنا رمز "إسماعيل" أحد عناصر القصة الدينية التأريخية التى ولدها فكر محمود *درويش* الشعرى لمواكبة واقعه المحدث.

فى مكان آخر، فى قصيدة «مأساة النرجس، ملهاة الفضة» يستلهم محمود *درويش* قضية الفداء والتضحية المتعلّقة بقصة *إبراهيم(ع)* والخلاف ما بين التوراة والقرآن الكريم حول كون الابن الذبيح *إسماعيل* أو *إسحاق*(ابن كثير، قصص الأنبياء: ١٠٣ – ١٠٢)، يقول:

لم يسألوا عما وراء مصيرهم وقبورهم ما شأنهم بعد القيامة؟
ما شأنهم إن كان إسماعيلُ أم إسحقُ شاةً للإلهُ؟
هذا الجحيم هو الجحيمُ ...

(درويش، الديوان، ج٢: ۴۲۳)

لم يكن استلهام الفكرة من أجل إثارة الخلاف فى ذاته ولا من أجل إثارة خلاف مستمدّ من الواقع، فلعلّه إشارة إلى مرحلة زمنيّة يتوصّل فيها الفلسطينىّ الحالم إلى هدفه غير مبال بالتضحيات وبمن يضحّى؛ وإنّما نشوته بالوصول إلى حلمه تنسيه آلامه وتضحياته ولعلّ "شاة للإله" هنا شاة الوطن، إذا ما كان الله فى رأى *درويش* يأخذ اسماً جديداً هو الوطن، الله هو الوطن.

المسيح(يسوع)(ع)= الحكيم المضحّى من أجل الإنسانيّة

يأتى فى طليعة الرموز الدينيّة والأسطوريّة الموظّفة فى القصيدة الحديثة رمز مسيح*(ع)* وليكن ليس من قبيل المبالغة إذا قيل «إنّ من النّادر أن نجد شاعراً لا يوظّف هذه الشخصيّة وما يرتبط بها من دلالات تنسجم مع الواقع الذى يعيشه»(سليمان، ظاهرة

الغموض فی الشعر الحرّ: ۷۲)؛ ويتّضح أنّ «من الشخصيّات المقدسة التی عمد الشعراء الفلسطينيون المعاصرون إلى استدعائها شخصيّة *المسيح(ع)* التی أحسّ الشعراء إزاءها أنّهم أكثر حرية، ومن ثمّ أطلقوا لأنفسهم العنان فی تأويل ملامحها وانتحالها لأنفسهم، وتلك الشخصيّة فی الشعر الفلسطينیّ مستمدّة من الموروث المسيحی وخصوصاً «الصلب» و«الفداء» و«الحياة من خلال الموت»(البنداری والآخرون، التناص فی الشعر الفلسطينیّ المعاصر: ۲۵۷). يستفيد محمود *درويش* من هذه الدلالات المتنوّعة التی تفيض بها شخصيّة مسيح*(يسوع)(ع)* ليدير حواراً معه، فيقول:

ألو
أريد يسوع
نعم .. من أنت؟
أنا أحكی من إسرائيل
وفی قدميّ مسامير.. وإكليل
من الأشواك أحمله
فأی سبيل؟
أختار يابن الله .. أی سبيل؟
أأكفر بالخلاص الحلو أم أمشی؟
ولو أمشی وأحتضرُ
أقول لكم .. أماما أيّها البشر

(درويش، الديوان، ج۱: ۱۵۰)

يجيبه *المسيح(ع)*: «أماما أيّها البشر» أی عليه وعلى الشعب الفلسطينیّ أن يتحمّلوا الشدائد ويتجاوزوا الآلام والمعاناة.

فقد أراد الشاعر هنا عبر شخصيّة *المسيح(ع)* أن يصور الصراع القائم داخل النفوس الفلسطينيّة الحائرة فی دربها وأن يسترشد بحكمة الأنبياء الرافضين للاستسلام، فالفلسطينیّ يعانی عذاباته حائراً منتظراً ولادة فجر جديد مرتهن بأبطال متجدّدين؛ وبذا يحاول الشاعر فلسطينيّاً أن يستمدّ قوته من *المسيح* الحكيم المضحّی من أجل الإنسانيّة، الثابت رغم المعاناة، وليس ممّن يملك هذه القسمات إلاّ أن يحثّه على مواصلة المسير،

والشاعر يلجأ إلى ذلک مؤمناً بأنّ تلک الشخصيّة رمز للقوّة والتحدّی وأثناء ذلک يستدعی الإشارات الدالة عليها: «المسيح»، «يسوع»، «ابن الله» ويصوّر معاناة الفلسطينیّ باستحضاره إشارات أخرى دالّة عليه ومنها: «مسامير» و«إكليل من أشواک»(المصدر نفسه، ج١: ١٥٠). لقد تضمن نصّ هذه المقطوعة الشعرية استدعاء لشخصيّة *المسيح(ع)* وما يكتنفها من الآلام و العذاب مسقطاً تلک الشخصيّة على واقع الشعب الفلسطينی وما يرزح تحته من سجن وقتل وتشريد. فالشاعر العربی الذی يعيش فی الأرض المحتلّة يحسّ أنّه مصلوب وشعبه وأرضه وبالتالی *فالمسيح* وما عاناه عند الصلب يشير إلى الجوّ النفسی الذی يعيش فيه الشاعر كما يشير أيضاً بقوّة إلى المأساة الفلسطينيّة وبالتالی فشخصيّة المسيح تدعوه للنضال من أجل المستقبل الإنسانی، فليس هذا وقتاً للاستسلام والترجع والقهقری. وتكون عبارة «أماما أيّها البشر» معبّرة عن الإصرار على مواصلة الدرب رغم المعاناة والألم. وفی هذا الاقتداء بشخصيّة *المسيح(ع)* الذی لم ينثنِ على صليبه، بل ظلّ منتصب الهمّة والهامة.

إنّ القصيدة الحديثة لها تشكيلها الخاص المرتكز على أساليب ملتوية، أبرزها الرموز الخاضعة لآليات مختلفة ورمز *المسيح* يتحرک داخل النصّ الشعریّ معبّراً عن حرية الإبداع فی الزمن الحداثیّ، وهو عند *درويش* يسهم فی تحريک عناصر القصيدة والاتّصال بها ويجسّد تجربته ويلبّی شأوه؛ إذ يقول:

أنا والمسيحُ عَلَى حَالِنَا:
يَمُوتُ ويحيا، وفی نَفْسِهِ مريمُ
وأحيا وأحْلُمْ ثانيةً أننی أحلُمُ
ولكنّ حُلْمی سريعٌ كبرقيّةٍ
تُذَكِّرُنی بالأخُوَّةِ بين السماوات والأرض

(درويش، سرسر الغريبة: ٩٦)

إنّ الشاعر، ههنا يوازی حالته بحالة *المسيح(ع)* مؤكداً على التطابق النفسیّ بينهما ولم يلجأ إلى التّوحّد أو القناع بقوله: «أنا والمسيحُ عَلَى حَالِنَا» إنّ *درويش* مُصرٌّ على الحلم مستلهماً مواصفات *المسيح(ع)*، ففی السطر الثانی ربط الموت بالحياة ولعلّه هنا يستلهم فكرة القيامة استلهاماً بعيداً عن المباشرة؛ إذ يعتقدون المسيحيون أنّ *المسيح(ع)* قام من

الأموات في يومه الثالث(العهد الجديد، الإصحاح السابع والعشرون: ٥٥). والذي يقرّب هذه الفكرة قوله في السطر الثالث «وأحيا وأحْلُمْ ثانيةً»، فالحياة هنالم تقترن بالموت كما السطر الثاني والقيامة عودة دائمة للحياة والموت والحياة بالنسبة للنبيّ *المسيح(ع)* لا يعنيان غير الدلالة الحقيقية. أمّا الموت والحياة بالنسبة للشّاعر فلعلّهما تجارب الحياة المتراوحة بين الأمل واليأس ولعلّ الحلم هو الوسيلة إلى الحياة بمفهومها المعنوي. فلعلّ المسافة الشاسعة بين السموات والأرض تفرض مسافة شبيهة بين الشاعر وأمله في تحقيق أحلامه.

قد يمثّل «رمز *المسيح(ع)* في تجارب بعض الشعراء مثالاً لربط حالة الظلم والقهر ونضال الإنسان في حياتنا المعاصرة بالواقع القديم لنضال *المسيح(ع)* من أجل الإنسان»(شعث، الأسطورة في الشعر الفلسطيني المعاصر: ١١٣). فمعاناة *المسيح(ع)* بما تشمل عليه من تصورات تنسلخ على الفلسطيني وتعبر عن معاناته بصورة أعمق، وتأتي تلك المعاناة مصحوبة بمعاني التسامح والحبّ والإنسانية والفداء في مقابل الظلم والخيانة والمخاتلة.

بما أنّ المسيحيّون «يعتقدون أنّ *آدم(ع)* أول آدم ارتكب خطيئة بعصيانه الله تعالى، وبذلك يصبح كلّ أفراد ذريته خطاة؛ لذا يأتي *المسيح(ع)* ليفدي البشر ويحمل خطاياهم»(مظهر، قصة الدّيانات: ٤١٤- ٤١٣)؛ وبذلك «تكون المسيحية عنصراً ثميناً، بفكرتها عن رجل يموت فوق صليب من أجل خطايا البشر»(كولن، الشعر والصوفية: ٥٥). والصليب رمز يرتبط بـ"فلسطين" القديمة وقد أكثرَ *درويش* من استخدامه وتوظيفه في نصوصه الشعرية؛ ممّا ينمّ عن مدى اهتمامه بالثقافة الدينيّة ويبيّن الجو النفسي الذي يعيشه(النّقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلّة: ٢١١). فمن يطّلع على دواوين *درويش* مبتدئاً بديوانه الأوّل «عصافير بلا أجنحة» يطالع رمز *المسيح(ع)* وقضية "الصليب" ومتعلّقاته قد غطّى مساحة شاسعة من دواوينه. لقد تردّدت عند *درويش* ألفاظ دالّة على هذا الرمز، مثل: "طلبان" و"صليب" و"يصلب" و"مصلوب" و"صلبوني" و...، ولعلّ أكثرها ترداداً لفظ "الصليب" على أنّه الشّعار والرمز في العقيدة المسيحيّة وتردّدت عنده إشارات أخرى ترتبط بحدث "الصّلب" على أنّها من أدواته مثل: "الخشبة" و"القيود" و"إكليل الشوك ..."؛ إذ وضع على رأس *المسيح* إكليل من الشوك قبل الصّلب

وكلّ تلك الرموز تشكل بمجموعها حدثاً تأريخيّاً، يحمل فی كنهه بعداً يثير فی النفس خلجاتها الروحيّة المشجية وتكاد تجتمع هذه الرموز فی قصيدة واحدة عندما يقول الشّاعر:

نَصَبوا الصّليبَ على الجدار
فكّوا السّلاسلَ عن يدی
والسّوط مِروَحة ...
ودقّات النّعال
لحنٌ يصفّر:
سيدی ويقولُ للموتى حَذار!
يا أنتَ
قالَ نباحُ وحش:
أعطيكَ دربَكَ لو سَجَدتَ
أمام عرشی سجدتينْ!
ولثمت كفی، فی حياء، مرتينْ
أو ...
تعتلی خشب الصليبِ
شهيد أغنية.. و شمسْ!
ما كنتُ أول حامل إكليل شوكِ...

(درويش، الديوان، ج١: ٩٩- ٩٨)

الصليب رمز تبرّره مأساة الشاعر ومأساة وطنه ومن هنا يكون هذا الرمز فی عملية النضال قدرة تحريضية، تظهر مدى قدرة الجماعة علی استحضار الماضی يبرز الشاعر معاناته فی النصّ ويستحضر النصّ الإنجيلیّ علی لسان عدوّه المرموز له بالوحش. وذلک بقوله: «أعطيكَ دربَكَ لو سَجَدتَ أمام عرشی سجدتينْ!». ففی النصّ الإنجيلیّ يأخذ "إبليسُ" *(المسيح(ع)* إلی جبل عال ويريه جميع ممالک العالم ومجدها، قائلاً له: أعطيک هذه جميعَها إن خررتَ وسجدتَ لی فرفض المسيح السجود إذا للربّ(الكتاب المقدس، الإصحاح الرابع، ١٠: ٧). من هنا يحوّل الشاعر دلالة النصّ بما ينسجم مع الواقع،

فـ"إبليس" يكون رمزاً للمحتل مستبدلاً لفظ "الوحش" بـه و*المسيح(ع)* يكون صورة للشاعر الذی يخيّره المحتّل بين السجود والخنوع له من ناحية وبين الموت على الصليب من ناحية أخرى ويكون السجود مقابل أن يعطيه المحتلّ دربه؛ أی مقابل تخليصه من زنزانات الصهيونی.

نوح(ع)= رمز البحث عن المصير والهدف

بالإضافة إلى استلهام شخصيّة سيدنا محمّد*(ص)* التی أخذت دلالات متنوّعة كثيرة فی قصائد الشعراء المحدثين، عمد بعض الشعراء إلى استدعاء شخصيّات دينية مقدسة وهذا ما نجده عند محمود *درويش* عندما استدعی شخصيّة نوح (ع) فی قصيدته المعنونة بِـ«مطر»:

يا نوح!
لا ترحل بنا
إن الممات هنا سلامة
إنّا جذور لا تعيش بغير أرض..
و لتكن أرضی قيامه

(درويش، الديوان، ج١: ١١١- ١١٠)

فقد استحضر محمود *درويش* شخصيّة *نوح(ع)* من أعماق الموروث الدينی ودفع بها على سطح الصياغة فی مفارقة غريبة أوحت بالتوتّر الناجم فی القصيدة. فموقف نبيّنا *نوح(ع)* أنّه حاول أن يفرّ بأتباعه خوفاً من الطوفان ويستقرّ بهم فی مأمن بعيد فی حين أنّ الشاعر قد قام بانزياح دلالیّ إزاء قصته التأريخيّة واتّخذ موقفاً مغايراً للموقف الدينیّ تحمله رؤيته للموضوع؛ إذ أنّه يرفض فكرة الرحيل أو الهروب من موطنه، فالهروب من وطنی يعنی الموت. إذا كان سفينة *نوح(ع)* فی قصة الطوفان وسيلة للنجاة، فهی فی القرن العشرين وسيلة للرحيل عن الدّيار، فقد اتّخذت قصة الطوفان عند *درويش* بعداً شعوريّاً آخر يكمن فی البحث عن وسيلة للنجاة دون الرحيل عن أرض الوطن الذی طغی عليه طوفان الأعداء(أبوشاور، تطوّر الاتّجاه الوطنیّ فی الشّعر الفلسطينیّ المعاصر: ٣٢). ويأتی السطر الرابع ليعلل رؤية الشاعر مستخدماً أسلوب التوكيد لينزع كلّ الشكوک التی

يمكن أن تجول بخاطر مسامعه. يستلهم الشاعر أثناء ذلک الحدث المتمثّل فی إرسال *نوح(ع)* للحمامة ليستكشف الطّوفان فأتته بورق الزيتون، ووجود الحمامة وغصن الزّيتون فی السيّاق يرمز إلی زوال الطّوفان ولكنه ليس طوفان *نوح(ع)* وإنّما طوفان الأعداء.

يوسف(ع)= فلسطين أو الأمّة العربية الممزّق المتردّي

لقد وجد بعض الشعراء الفلسطينيين المعاصرين فی الموروث الدينیّ ما يعينهم علی تأكيد قضاياهم الفكرية و قيّمهم الروحيّة، وبخاصة فيما يتعلّق بقضية الصراع العربی الصهيونیّ وتعميقها فی وعی المتلقّی ومنحها بعداً شمولياً لذلک أولوا الشعراء الفلسطينيون اهتماماً كبيراً بالمعطيات الدينيّة، الّتی تتعرض لليهود وجرائمهم وكذلک استغلوا من الموروث الدينیّ المواقف الثوريّة الّتی وقفت فی وجه الظلم والقهر وقد كانت شخصيّات الأنبياء والرسل(ع) من أكثر الشخصيّات الدينيّة حضورا لثرائها الدلاليّ وقدرتها علی حمل أبعاد التجارب المعاصرة وقربها من معاناة وهموم الشاعر المعاصر(البندارى والآخرون، التناص فی الشعر الفلسطينیّ المعاصر: ۲۴۷)، بإمكاننا أن نرصد مظاهر هذا الاستلهام فی شعر محمود *درويش*، حيث نراه يستدعی الشاعر شخصية *النبی يوسف(ع)* ويتخذها قناعاً لنفسه، ويقول فی قصيدة «أنا يوسف يا أبی» ويتعرض للعرب الذی باعوا القضية الفلسطينيّة كما بيع *يوسف* من قبل اخوته:

أَنَا يُوسُفٌ يَا أَبِی
يَا أَبِی
إِخْوَتِی لَا يُحِبُّونَنِی
لاَ يُرِيدُونَنِی بَيْنَهُم يَا أَبِی!...
يَعتدُونَ عَلَیَّ وَيرْمُونَنِی بِالحَصَی وَالكَلَامِ
يُرِيدُونَنِی أنْ أَمُوتَ لِكَیْ
يَمْدَحُونِی.. وَهُمْ أَوْصَدُوا بَاب بَيْتِکَ دُونِی..

(درويش، الديوان، ج۲: ۳۵۹)

استدعی *درويش* شخصيّة *النبی يوسف(ع)* بنية لما حلّ بفلسطين، حيث يشبّه نكبة بلده فلسطين وقضية شعبه التی تخلّت عنها الدول العربية بقضية يوسف الذی تخلّی عنه

إخوته بعد أن غدروا به وألقوه فی غياهب الجبّ. من هذا المنطلق، يشكو الشاعر من العرب عامة لموقفهم المخزی تجاه فلسطين أولاً واتّجاه القضايا العربية المصيرية؛ إذ أنهم عملوا كل شیء فی سبيل موته، موت القضية الفلسطينية والقضايا العربية المصيرية، حيث رموه فی غياهب الجبّ واتّهموا الذئب بدمه كذباً.

إنّ درويش استلهم من شخصيّة يوسف (ع) وجعلها قناعاً لنفسه حيث وجد بأنه من الصعب أن يعبّر عن تجربته الشعرية بوجهها الحقيقی فيأتی الرمز الأسطوریّ للتعمية والابتعاد عن عين الرقيب من خلال أضلال صحراء الرمز والرمزية. قد اتخذ الشاعر النبیّ "يوسف" – عليه السلام رمزاً للتعبير عن الإنسان الفلسطينی، فتحوّل "يوسف" / الشاعر إلي نموذج للاجئ، الفقير، المنبوذ، وغدا فيها ناطقاً باسم القضية الفلسطينية، يرسم صورة صادقة لمعاناة هذا الشعب.

نتيجة البحث

محمود *درويش* من الشعراء المعاصرين الذين تميّزوا فی توظيف التراث ويعتبر التراث مصدرا غنيّا من مصادر إلهامه الشعریّ. استخدم *درويش* معالماً من شخصيّة *النبیّ محمّد(صلّی الله عليه وآله وسلّم) وآدم وحواء(ع) وإسماعيل(ع) ويوسف(ع)* و... تنسجم مع الرؤية الجهاديّة لدی الشاعر نظراً للتأثير الهائل الّذی تتركه الرموز الدينيّة واستحضارها علی المخاطب والمتلقّی.

استحضر محمود *درويش* من الشخصيّات الدينيّة الشخصيّات التی تحمل دلالات إيحائيّة ورمزيّة تتناسب أفكار الشاعر وطروحاته.

استطاع محمود *درويش* أن يحوّل اللّغة الشّعرية إلی اللّغة الرمزيّة تستمدّ قدرتها الإيحائيّة الهائلة من تجاوزها للواقع. استطاع محمود *درويش* أن يحيل كلّ الرموز الموظّفة فی شعره إلی الرموز النضالية ورموز التحدّی فی سبيل الدفاع عن الوطن.

لم يقتصر محمود *درويش* علی استدعاء الشخصيّات الإسلاميّة فحسب، بل امتدّ إلی شخصيّات باقی الأديان السماويّة فی العالم واهتمّ بالفكر الإنسانیّ عامة. استخدام محمود *درويش* للرموز الإنسانيّة المتعدّدة، يبرز روح التسامح الدينیّ عنده. إنّ محمود *درويش* من خلال استدعاء الرموز التوراتيّة فی شعره أماط اللثام عن وجه التأريخ وممارسات

الصهاينة فی الفلسطين والأرض المحتلّة. بدا حضور الآيات القرآنية متركـزاً بشـكل جزئـیّ فی شعر *درويش* وقد تكرّرت آيات قرآنيّة بعينها لديه، أمّا الأسفار التوراتيّة فقد أثرت فـی أعمال شعريّة دون أخرى؛ فقد كان لـ«سفر الجامعة» و«نشيد الأناشـيد» و«مزاميـر داود» الأثر الأكبر فی بلورة عواطف الشّاعر وإعادة صياغتها.

لقد أثر الرموز الدينيّة والتأريخيّة فی الجانبين: الموضـوعی والفنـیّ فـی شـعر محمـود *درويش* ولعلّ الجانب الموضوعیّ كان أكثر تأثّراً من الجانب الفنیّ. ولقد بدا التأثّر بالجانـب الفنی أحياناً سلبياً؛ وخاصة فی الرموز التأريخيّـة والأسـطوريّة، حيـث سـاقت شـعره إلـی الغموض أحياناً.

إنّ الرموز الّتی اقتناها محمود *درويش* تتلائم مع الواقع الجديد الـذی تعيشـه البلـدان العربية، بحيث تتعاطف معها الشعوب وتستمدّ من دلالاتها الرمزيّـة فـی مواجهـة الأنظمـة الاستبدادية والاستكبارية.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس(أسفار العهدين القديم والجديد). ۱۹۹۶م، مترجمة من اللغات الأصلية، شتوتغارت، ألمانيا: نداء الرجاء.

ابن كثير. د.ت، **قصص الأنبياء**، خرج أحاديثه محمّد بيومی، عبدالله المنشاوی، محمّد رضوان مهنا، د.ط، المنصورة: مكتبة الإيمان.

أبوشاور، سعدی. ۲۰۰۳م، **تطوّر الاتّجاه الوطنیّ فی الشّعر الفلسطينیّ المعاصر**، الطبعة الأولی، خان يونس، فلسطين: مكتبة القادسية للدراسات والنشر والتوزيع.

أدونيس. د.ت، **زمن الشّعر**، الطبعة السادسة، دار الساقی.

البياتی، عبدالوهاب. ۱۹۶۷م، **ديوان المجد للأطفال والزيتون**، مصر: دار الكتاب العربی.

جحا، ميشال. ۱۹۹۹م. **الشعر العربی الحديث من أحمد شوقی إلی محمود درويش**، مقدمة إحسان عباس، الطبعة الأولی، بيروت: دار العودة.

دباخ، سعيدة. ۲۰۱۵م، **استدعاء الشخصيّات التراثيّة فی شعر حسين زيدان**، جامعة محمد خيضر بسكرة.

درويش، محمود. ۱۹۹۰م، **أری ما أريد**، ط۱، بيروت: دار طوبقال للنشر.

درويش، محمود. ۱۹۹۹م، **الديوان**، ج۲، الطبعة الثانية، بيروت: دار العودة.

درويش، محمود. ۲۰۰۰م، **الجدارية**، الطبعة الأولی، بيروت: رياض الرّيّس للكتب والنّشر.

درويش، محمود. ۲۰۰۲م، **حالة الحصار**، بيروت: دار العودة.

درويش، محمود. ۲۰۰۰م، **سرير الغريبة**، الطبعة الأولی، بيروت: رياض الرّيّس للكتب والنّشر.

درويش، محمود. د.ت، **الديوان**، ج۱، بيروت: دار العودة.

درويش، محمود. د.ت، **لماذا تركت الحصان وحيداً**، الطبعة الأولی، بيروت: دار العودة.

زايد، علی عشری. ۱۹۸۰م، **توظيف التراث العربی فی شعرنا المعاصر**، بيروت: الهيئة المصرية الهامّة للكتب.

السعيد الورقی. ۲۰۰۵م، **لغة الشعر العربیّ، مقوّماتها الفنيّة وطاقاتها الإبداعية**، مصر: دار المعرفة.

شاهين، ذياب. ۲۰۰۴م، **التّلقّی والنصّ الشّعریّ**، الطبعة الأولی، إربد: دارالكنديّ للنشر والتوزيع.

شعث، أحمد جبر. ۲۰۰۲م، **الأسطورة فی الشعر الفلسطينیّ المعاصر**، الطبعة الأولی، خانيونس: مكتبة القادسية للنشر والتوزيع.

الصّكر، حاتم. ۱۹۹۹م، **مرايا نرسيس الأنماط النوعيّة والتّشكيلات البنائيّة لقصيدة السّرد الحديثة**، الطبعة الأولی، بيروت: المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع.

طاقة، شاذل. ١٩٦٩م، **ديوان الأعور الدجال والغرباء**، بيروت: مكتبة الحياة.
الطهرانی، نادرنظام وواعظ، سعيد. ١٣٨٧م، **شذرات من النّظم والنّثر فی العصر الحديث**، الطبعة الثانية، طهران: جامعة العلامة الطباطبائی.
غنايم، محمود. ٢٠٠٠م، **مرايا فی النقد، دراسات فی الأدب الفلسطينی**، الطبعة الأولی، كفرقرع: مركز دراسات الأدب العربی، دار الهدی.
فوزی، إيمان. ٢٠٠١م، **فی الصحة النفسيّة**، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
كولن، ولسون. ١٩٧٢م، **الشعر والصوفية**، ترجمة عمر الدّيراويّ أبوحجلة، الطبعة الأولی، بيروت: منشورات دار الآداب.
مظهر، سليمان. ٢٠٠٢م، **قصة الدّيانات**، الطبعة الثانية، القاهرة: مكتبة مدبولی.
الملوحی، مظهر وآخرون. ٢٠٠١م، **نشأة العالم والبشريّة دراسة معاصرة فی سفر التّكوين**، الطبعة الأولی، بيروت: دار الجيل.
النّقاش، رجاء. ١٩٧١م، **محمود درويش شاعر الأرض المحتلّة**، الطبعة الثانية، بيروت: دار الهلال.
هلال، محمّد غنيمی. ١٩٩٩م، **الأدب المقارن**، بيروت: دار العودة.
هلال، محمّد غنيمی. د.ت، **قضايا معاصرة فی الأدب والنقد**، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنّشر.

المقالات

أصلانی، سردار وشاملی، نصرالله وكرمی، عسكرعلی. ١٣٩٠ش، «**الرمز والأسطورة والصورة الرمزية فی ديوان أبی ماضی**»، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد ٢١، شتاء، صص ٢٠- ١.
البنداری، حسن والآخرون. ٢٠٠٩م، «**التناص فی الشعر الفلسطينیّ المعاصر**»، مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانيّة، المجلد ١١، العدد ٢، صص: ٣٠٢ -٢٤١.
حمدان، عبدالرحيم. ٢٠٠٦م، «**استدعاء الشخصيّات الوطنية والجهادية والتراثية فی ديوان "حديث نفس" للشاعر الشهيد عبدالعزيز الرنتيسی**»، مجلة الجامعة الإسلاميّة، المجلد الخامس العشر، العدد الأوّل، صص ١٢٨- ٩٣.
روشن‌فكر، كبری و ذوالفقاری، كبری. ١٣٩٠ش، «**بررسی تطبيقی ژرف‌انديشی در شعر محمود درويش وقيصر امين‌پور**»، فصلنامه نقد و ادبيات تطبيقی، دانشكده ادبيات و علوم انسانی دانشگاه رازی كرمانشاه، سال اول، شماره ٢، تابستان، صص ١٣٠- ٩٩.
السلطان، محمّد فؤاد. ٢٠١٠م، «**الرموز التأريخية والدينيّة والأسطورية فی شعر محمود درويش**»، مجلة جامعة الأقصی(سلسلة العلوم الإنسانيّة)، المجلد ١٤، العدد ١، صص ٣٦- ١.

سليمان، خالد. ۱۹۸۷م، «**ظاهرة الغموض فی الشعر الحرّ**»، فصول، مجلة النقد الأدبی، العدد الثالث والرابع، الهيئة المصرية الهامة للكتاب.

الشوابكة، محمدعلی. ۱۹۹۵م، «**توظيف التناص فی "متاهة الإعراب فی ناطحات السّراب" لمؤنس الرزاز دراسة فی التناص القرآنی والبنائی فكريّاً وفنيّاً**»، مجلة علمية محكمة ومفهرسة، المجلد العاشر، العدد الثّانی، تصدر عن عمادة البحث العلمی والدراسات العليا، جامعة مؤتة.

نظری، علی وولیئی، يونس. ۱۳۹۱ش، «**استدعاء شخصيّات الشعراء فی شعر محمود درويش**»، مجلة دراسات الأدب المعاصر، السنة الرابعة، خريف، صص ۴۲- ۲۱.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی